اللغة ، الادب ، التاريخ

أحمد بونفور

I ـ نقرأ عددا وفيرا من النصوص النقدية التي تعلن عن وجود أزمة للحديث النقدي وعن ضرورة ايجاد مشروع في هذا الميدان . بعض النصوص تقترح فرضيات عمل . الا انه ليس في نيتي القيام بقراءة نقدية لهذه المشاريع . وسأكتفي ، أولا ، بتوضيح من وجهة نظر مناهجية ونظرية سابقة ، او موازية ، لكل مشروع في ميدان ما يسمى بـ (النقد) .

شيء جيد أن توجد محاولات ، ومشاريع للتحليل النقدي ، وينبغي تشجيع الانتاج في هذا المجال . الا أن الحديث يبدأ ، منذ الان ، عن ازمة وهذا يبدو لي امرا تشخيصيا وكاشفا عن القسمات الجوهرية لهذا الحديث :

أ) ـ « الحديث النقدي في أزمة » معناه ان هذا الحديث غير مقروء (مباع) مثلما هو العمل الادبي .

ب) هذا الحديث لا يستطيع انجاز سبر لعمل أدبي ما بنسقية : اذ تفلت منه اوجه عديدة لهذا العمل .

ج) ـ هذا الحديث دوغمائي ، وذلك لانه ـ وبشكل جوهري ـ حديث مفتاح ، ومن هنا تنبع عدم فعاليته .

وبالتالي فانه لا توجد أزمة بالمعنى الكلاسيكي للاقتصاد الليبرالي ، الا حين يحدث تضخم في الانتاج أو حين يقل الانتاج (الشيء الذي لا يتوفر في حالتنا هذه) .

الأزمة ، كما افهمها ، تكمن في واقع أن ثمة انتاجا الا انه انتاج مشكوك في نوعيته . ومن هنا ينبع بعض من عدم الميل الى النصوص النقدية .

لا يكفي أن نلاحظ وأن نحدد نمط الازمة الذي يدور الحديث حوله . وانما ينبغي تفسيره ، اي ينبغي أن نطرح مسالة شروط امكانه .

ومن جهتي ، فان التفسيرات كلها تستطيع ان تتركز في موضوعين : النسيان والعقدة القومية .

سأعالج في هذا المقال الموضوع الاول : أما الثاني فسانشره في مؤلف

قيد التحضير بالاشتراك مع أحد الاصدقاء .

ودون أن ندفع بالتحليل بعيدا (وهو أمر له اهميته) سأنطلق من حالتين محددتين : ما هو مضمون كلمة **نقد وادب** ؟ ثم ، ماذا كانت ممارسة النقاد القدمـــاء ؟

2 . 0 ــ مثل طالب متوسط ، أعود الى « لسان العرب » وانسخ : **النقد** : تمييز الدراهم واخراج الزيف منها .

ومن ذلك أستخلص عدة ملاحظات :

ــ كلمة **النقد** ليست ، اذن ، في أصلها كلمة مخصصة لممارسة نصية أمر بديهي ! الا أنه ينبغي ان نستخلص منه مستتبعاته ، كل مستتبعاته .

ــ الكلمة مستعارة من ممارسة مؤسسية وحقوقية ، هي الكشف عن القطع النقدية الزائفة ، وبذلك فهي تمييز للصحيح من الفاسد ، انها عملية لا يمكن أن تكون الا علمية وموضوعية والا فان الاقتصاد (البقيا) قد دمر .

بديهة ثانية ! وهنا أيضا ، علينا ان نستخلص كل المستتبعات وهذه بضعـــة منهـــا .

2 ــ 1 ــ لماذا اختيرت كلمة نقد وليس كلمة أخرى ؟ لماذا الاستعـارة من ميدان الاقتصاد وليس من ميدان آخر ؟

هذان السؤالان يهدفان الى تأزيم الحديث الذي يكتفي باستعمال اللفظ المستعار استعمالا « طبيعيا » وصولا الى تحييده . ثمة اختيار ، وهـــذا الاختيار تشخيص لشيء ما ، شيء منسي من طرفنا . ينبغي اذن القيام بحفريات لسانية ، لاظهار هذا المنسي . غياب هذه الحفريات له ، هو نفسه، مستتبعاته الخاصة به . لكن ، سيقال ، ان **النقـد** ليس الكلمة الوحيـدة المستعملة في هذه الحالة . وفعلا ، **فالموازنات** ليست سوى تطبيقات عينية للنقد الاصلي . لقد كان يقام بالتمييز بهدف اكتشاف الشاعر الحقيقـــي والجيد . وتقوم نظرية قدامة (أنظر مقدمته لـــ « نقد الشعر ») على طرح قواعد بامكانها مساعدتنا على تمييز الشاعر الجيد من الرديء . ودراســـة تاريخ هذين الملفوظين والملفوظات المجاورة لهما هي عمل ذي الحاح علمي وايديولـوجـــي .

ان عملية تمييز الناقد هي عملية حقوقية للغاية .

الطابع العلمي واضح : فبالاضافة الى تراكم المعارف ، نستطيع في نفس الوقت السيطرة على المجال المعرفي الكلاسيكي ، وعلى قاعدته . والطابع الايديولوجي الذي احتفظ به هنا هو : انجاز تاريخ للسان وارغام الممارس (مستعمل اللغة) بالتالي على أخذ وعي بالمكان الذي يتكلم منه ، عن أي شيء يتكلم وكيف يتكلم عنه . بكلمات أخرى ، ان نمكنه من فهم ان اللسان هو مكان امجموعة متعددة من الترسبات التي ينبغي اللعب بها . ولكي نسهب في كلام الخطيبي نقول ان أمواتنا هم أحياء في لساننا ، وبالتالي،

فهم يسكنوننا ، دون علم منا ، بواسطة هذا اللسان . ماذا نعرف نحن عن اموانتا ؟ وماذا نقول عنهم للأحياء ؟

ان الجهل بهذا يعود الى مواصلة الممارسات القديمة بشكل لا واع (لا وعينا ، نسياننـــا) .

لهذا تستمر النصوص النقدية في تمييز الجيد من الكتاب عن الرديء منهم ، المخلص عن الكاذب ، الواعي عن المستلب ، بل وحتى الثوري عن الرجعـــي .

ما الفرق بين هذا الموقف وموقف **الموازنة** ؟ ليس ثمة أي فرق في العمق : هيكليا ، لم يتغير شيء . لم يتغير شيء سوى المضامين ، وهو موقف مشترك بين الميتافيزيقيا الاسلامية والارسطية . لا أقول أنـه ليس هناك فرق ينبغي القيام به في هذا المستوى : الا أنني أفضل القول ، من جهتي ، بأن ليس هناك ممارسة ثورية أو رجعية للسان. الممارسة الثورية هي تلك التي **تحول** اللسان في كل مستوياته : (المعجم ، النظـم ، علـم الدلالة ، علم الجمال ، التخيلي ، . . الـخ) .

أما الممارسة الرجعية فهي تلك التي تواصل أقدم الخطاطات . كيف نميز بين الممارستين ؟

ان التاريخ (الذي هو في ذات الوقت ذاكرتنا كنسيان متدارك ومستقبلنا المشترك) وحده سيقـرر .

2 ــ 2 ــ ان عملية التمييز عملية حقوقية للغاية . هذا يعني أن الحديث النقدي يعرض قوانين حقوقية . هذه الحقوقية (النموذج الانساني الاقدس في المجتمع الاسلامي ، أليس هو القاضي ؟) هي سلطة . وبذلك فان الناقد هو واضع يد سلطوي : انه يقرر ما هو مباح مما ليس هو كذلك . انـــه المصفاة التي تقرر فئة اجتماعية (هي فئة الادباء) بواسطتها أن هـذا النتاج أو ذاك ينتمي الى الذوق السليم أو لا ينتمي اليه .

ان الناقد الادبي القديم هو ، جوهريا ، ناقد أرستقراطي ، ونفس الشيء نقوله عن الادب الذي يصطفيه . لا تغيير دون تغيير للفئة ، لا مكان للأدب الشعبي . أليس غريبا أن قليلا من النصوص (هذه النصوص التي كانت خبز الشعب اليومي) الشفوية هو الذى تم الاحتفاظ بـه ونقلـه ؟ وباستثناء الامثال وبعض الملاحظات المدونة (المطبوعة بموقف قريب جدا من موقف الاثنوغرافيين) ، فان ما من أديب معروف كتب عن الادب الشعبي .

لكن ، ماذا يفعل نقاد اليوم ؟ ان الناقد يدعي تمكنه من قوة تحسب حساب الاشياء . والغريب أن هؤلاء النقاد ، كيفما كانت اختياراتهم ، لا يحدثوننا قط عن وجود ثقافة شعبية لها تقنياتها ، ومراسيمها ، والسنتها . انهم لا يتحدثون عنها الا كي « يستلهموا » منها : وتلك اثنوغرافية جد بـــارعـــة .

ينبغي ، اذن ، تغيير الموقف : فالممارسة النقدية ليست سلطة ، على الاقل هي ليست سلطة رقابة وادانة . ليس هناك ادب جيد وأدب ردىء : ثمه ممارسات لكل منها وظيفة تنجزها بهذا القدر أو ذاك في لحظة معينة من التـــاريـــــخ .

3 ــ 0 ــ وماذا عن كلمة ادب ؟

أدب : الذي يتأدب به الاديب من الناس .

لانه يؤدب الناس الى المحامد وينهاهم عن المقابح .

أديب : من قوم أدبـاء .

بعض الملاحظات تكفي لرفع النسيان والتيهان اللذين يتيـه فيهمـا الحديث النقدي اليـــوم .

3 ــ 1 ــ تعريف الادب هو تحصيل حاصل . مع ذلك فان ما يعرفه هو واقع أن « أناسا » (فئة اجتماعية) يقررون ان هذه الممارسة او تلك هي ادب او غيـر ادب .

هذا مهـم جدا لسببيـــــن :

1) فالادب ليس ، اذن ، قيمة كونية لا زمنية . التعريف لا يقول ذلك ، الا انه يتضمنه بشكل جنيني . ينبغي أذن ان نطرح علـى نفسنـا سؤال : لماذا لم تخرج هذه الفئة من الادباء بهذه الخلاصة وانما خرجت بسواها : هي كونية الادب أو رفعه الى مستوى المثال .

ب) الادب ممارسة اجتماعية تجانس (بضم التاء وكسـر النـون) الناس الذين يتعاطونها : انها اذن طريقة وجود (تفكير ، تصرف) . هذا يعنى أن كل من يتهم هذه الممارسة سيتم اقصاؤه . وينبغي ، اذن ، التساؤل حول هذه الاقصاءات .

3 ــ 2 ــ الادب ، من حيث هو ممارسة اجتماعية ، هو أيضا « ثقافة » تجعلنا نفكر كثيرا في « استقامة » الكلاسيكية الفرنسية .

انـــــه يتحـــدد بـــ :

أ) أخلاق : يقول لنا التعريف ما فيه الكفايـة عنهـا ، واساسهـا الديني والميتافيزيقي واضح (الخير / الشـر) .

ب) علم جمال مثالي : (جميل / قبيح) يطرح على نفسه مسائل المتعة بمصطلحات التأمل (الاستهلاك) .

ينبغي ، اذن ، أن ننجز حفريات لهذه الاخلاق ــ الجمالية لكي نحسن التحكم أكثر في الترسبات التي تهدد بالانزلاق في أحاديثنا النقدية او بكبت أحـــرى استراتيجيـــــة .

مثلا : لماذا ليست هناك محاضرات في علم الجمال في الجامعة أو خارج الجامعة ؟ وحتى في المدارس التي تسمى بمدارس الفنون الجميلة يتقلص علم الجمال في ماراتون كرونولوجي يسمى « تاريخ الفن » .

ولا أعتقد أن بمقدور ممارسة فنية ان تتقدم دون تأمل في الفن الذى ادعوه ، من جهتي ، « علم الجمال » .

3 ـ 3 ـ ثمة ملاحظة أخيرة ، لها أهميتها وهي ان الادب لا يتقلص في بعض الاجناس الادبية . والاديب يغطس في كل الانظمة الدراسية بنفس الكثافة ، ربما باستثناء ، الانظمة الدراسية الدينية .

والحال أن الادب اليوم يبدو متلصا في القصة والرواية والشعر والمسرح .

هذا التقليص يبدو بديهيا ولا احد يتساءل عن لماذاه . هنا أيضا نجد نسيانا . والواقع اننا نغتال في كل نسيان وعينا التاريخي ونغذي شراسة أمواتنا .

ومن جهتي ، أحب كثيرا لو يتم التأمل في هذه الفرضيات :

أ) ان تقليص الادب الى بضعة اجناس أدبية بعضها حديث العهد يتطابق أيضا مع تقليص في مضمون النقد .

ب) تقليص الادب ليس حديث العهد عندنا . فلمرات عديدة ، أقام فقهاؤنا المحارق لاجل مدنس القدسيات (ابن رشد) .

في أي نطاق لا يعيد تقليص اليوم انتاج نفس الحركات التي وجدت منذ قرون ؟ بما أننا لا نتوفر على دراسات في هذا الموضوع ، فمن المسموح لنا أن نقترحها كفرضية .

4 ـ خلاصات :

مما سبق ، أستخلص ما يلي :

ـ ثمة تمايز جوهري بين النقد الادبي الصحفي والحديث النقدى الذي عينت أعلاه بعضا من مهامه .

الاول يكتب بسرعة، وبذاك فهو رد فعل على قراءة. وهو ي أغلب الاحيان دعاية مع أوضد العمل المقروء . علينا بالثاني ، الذي سأدعوه « قراءة نقدية » أو « شاعرية » وهو مغاير جذريا للاول : انه ليس رد فعل ، بل هو تأمل طويل ، ليس دعاية ، بل انتاج ، ليس علم جمال للجميل والقبيح ولكنه انتشار لسير الكتابة . ليس بالنسبة لهذه الاخيرة معيار مطلق لتحديد أو حصر ما هو أدب مما هو ليس كذلك ، انه ، اذن ، حديث محدد تحديدا متضافرا من طرف عدد من القوى .

ـ الشاعرية التي نريدها هي حديث « متقف . » اذا أقنعتنا حفريات نسياننا بأننا في حاجة الى نظرية للتاريخ ، للمجتمع ، للايديولوجيات وللذات ، فان علينا الا ننسى أننا نعمل على جزء من اللسان ، على نمط معين من اللسان . أي أننا في حاجة الى نظرية للسان ، للادب ، للجنس ، الخ . فالحديث النقدي ، اذن حديث ملوث ، متعدد : انه حديث منحرف . وأولئك الذين يعتقدون أنهم يمتلكون حديثا فريدا واحاديا ما هم

الا مواصلين للميتافيزيقيا التقليدية . والحال ان المسالة كامنة هنا بالضبط : هل نحن قادرون اليوم على التمسك بحديث الانحراف هذا ؟ يبدو لـي ، اليوم ، أن بمقدور الادب وحده ، ربما ، أن يصبح مكانا مهمشا لممارسة منحرفة ملتذة ، بسبب انها ليست نفعية . لكن ، ما أن يريد الحديث النقدي أن يعيد هذه الممارسة الى صوابها لايلائها وظيفة اجتماعية وحيدة ، حتى تصبح مهددة بالموت ونحن معها ، وذلك لانها عودة للاخلاق الحقوقية تحت أقنعـة جديـــدة .